١ ـ الألغاز في الأدب العربي

الأستاذ محمود عزت عرفة

اللغز ... ومرادفاته

قد يبدو لأول وهلة أن الألغاز فن مستحدث تضرب إلى أدبنا العربي في عصوره المتأخرة ، فلهج به المتخلفون من الأدباء حتى أصبح فناً قائماً بذاته ، وغرضاً في النثر وفي الشعر تنصرف إليه الغاية ، وتُصاغ فيه الرسائل والمقطعات ، كما نرى ذلك في العصر التركي وما تلاه من عهود الانحطاط

على أن النظرة الشاملة تنفي عن أذهاننا هـذه الفكرة الخاطئة ، وتكشف لنا عن مدى تسلسل هذا الفن مع العربية منذ أقدم عصورها

والواقع أن الألغاز ـ وما يجري مجراها ـ لا تعدو أن تكون ضرباً من التعبير عماده اللقانة والفهم وحسن التأتي والفطنة من القائل ومن المستمع جميعاً ؛ وتلك نفحات ذهنية كان للعقل العربي بها منذ نشأته أوفر نصيب . واشتقاق « اللغز » في اللغة يشير إلى قدم هذه التسمية أو قدم مدلولها على الأقل ، إن لم يمكن التثبت من إطلاقها على هذا الفن نفسه منذ العهد الجاهلي

يقول قدامة في كتابه نقد النثر : أما اللغز فإنه من ألغز اليربوع ولغّز إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمنةً ويسرة ، ليعمي بذلك على طالبه ، وهو قول استُعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للعماية والمحاجاة

وأورد ابن الأثير قريباً من هذا ثم أضاف : وقيل ـ يعني في الألغاز ـ جمع لَغْز بفتح اللام ، وهو ميلك بالشيء عن وجهه ...

هذا وللغز مرادفات كثيرة يوردها أكثر المصادر من غير تفرقة ولا تحديد ، فيقال له (اللحن) وهو التعريض بالشيء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره . ومن ذلك قوله تعالى في صفة المنافقين : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) قال الزمخشري : أي في نحوه وأسلوبه ، وقيل اللحن أن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية ...

ويطلق على اللغز أيضاً المعمّى والترجم والأغلوطة ، والأحجية والمحاجاة (لدلالة الحجا عليه) ، والأدعية مثل الأحجية ... وأنشد الجوهري في الصحاح :

أداعيكَ ما مُستصعَباتٌ مع اليُسرى
حِسانٌ وما آثارهُنّ حسان !

وقال يعني السيوف . ويقال للغز أيضاً (الألقية) وهي ما يلقى بقصد الاختبار وطلب التعجيز ، و (المعاياة) ولعلها من تطلب الإعياء أو إثبات العي . وكل هذه ألفاظ تتقارب معانيها حتى لتكاد تومئ إلى مدلول واحد . ولقد حاول ابن الأثير في « المثل السائر » أن يفرد من بين ذلك ما سماه (المغالطات المعنوية) فيجعله نوعاً ، ثم يضم الأحاجي والأغاليط والألغاز والمعميات فيجعلها نوعاً آخر

تقسيم ابن الأثير

وهو يقول عن النوع الأول الذي سماه المغالطات المعنوية : حقيقته أن يُذكر معنى من المعاني له « مثل » في شيء آخر أو « نقيض » ، والنقيض أحسن موقعاً وألطف مأخذاً

ويقدم كنموذج لما له « مثل » قول المتنبي في وصف رمح :

يعادر كلَّ ملتفت إليه ولَبّته لثعلبِهِ وجارُ

فمعنى الثعلب المقصود هنا سنان الرمح . ولكن إمكان انطلاق هذا اللفظ على الحيوان المعروف أيضاً ، أتاح للشاعر أن يثبت لفظ (الوجار) على سبيل الجمع بين المثلين : الثعلب الحيوان ووجاره

أما ما يأتي على سبيل « النقيض » فذلك كقول الشاعر ـ محاجياً في الدواب ـ :

وما أشياء تشريها بمال فإن نفقَتْ فأكسدما تكون؟

إذ يقال نفقت السلعة أي راجت ، ونفقت الدابة إذا ماتت

قال ابن الأثير : وموضع المناقضة ههنا في قوله إنها إذا نفقت كسدت ، فجاء بالشيء ونقيضه ، وجعل هذا سبباً لهذا ...

ويخطّئ ابن الأثير من يُدخل هذا الضرب من المغالطات المعنوية في باب الألغاز ؛ ويعيب ذلك على أبي الفرج في أغانيه والحريري في مقاماته

واللغز عنده ـ بعد ذلك ـ هو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر ، لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً ، ولا بفهم من عرضه . ويمثل لذلك بقول الشاعر[1] ملغزاً فى الضرس :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته ... يشقى لنفعى ويسعى سعى مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فذ وقعت ... عينى عليه افترقنا فرقة الأبد !

على أنه يعود فيتمثل بقول الآخر ملغزاً فى (خيال) :

ومضروب بلا جـــرم ... مليح اللون معشوق
له قـــدُّ الهلال على ... مليح القـــد معشوق
وأكثر ما يُرى أبداً ... على الأمشاط فى السوق !

وواضح أن من السهل إدراج هـذا المثل فى باب المغالطات المعنوية ؛ إذ الأمشاط والسوق المقصودة هنـا هى تلك المواضع المعروفة من الجسم ، ولكن الشاعر غالط فى معنى الكلمتين جميعاً ، وأتاح له هذه المغالطة المعنوية (المزدوجة) ـ يكون من اقتران سوق البيع والشراء فى الأذهان عادة بأمشاط الشعر التى تباع فيها ، حتى لكان مما أضافه ابن الأثير إلى ذلك قوله : بلغنى أن بعض الناس سمع هذه الأبيات فقال : لقد دخلت السوق فما رأيت على الأمشاط شيئاً !

هذا وإن المغالطة المعنوية فى البيت الأخير — بذكر الشىء ومثله — لشبيهة بما سلكه المتنبى من المغالطة فى معنى التعلب بذكر «مثل» له وهو الوجار . فنرى من ذلك أن اللغز ومرادفاته — ومن بينها المغالطة المعنوية — تدور جميعها حول مدلول واحد أو يكاد يكون واحداً . فمحاولة التفرقة بين معانى هـذه المترادفات توشك أن تكون تعسفاً لا محصل منه ومجهوداً لا طائل تحته

طائر يلغزونه ؟

استعمل الفصحاء من قديم هذا الضرب من التعبير الدقيق ناظرين إلى فوائد فيه ، منها رياضة الفكر على تصحيح المعانى واستنباط دقائقها من بطون الألفاظ . ومنها إظهار البراعة فى التلبيس والتمويه بتجلية الحق فى معرض الباطل وإلباس الممكن ثوب المستحيل . ومنها توليد المعانى الغريبة والتزيد فيها ، وابتكار ما يستثير العجب منها فى غموضه ، والإعجاب بعد تجليته وإيضاحه . ومنها صون ما يراد صونه من معانى الكلام وحجبه إلا دون من يُرغب فى بذله إليه ؛ وذلك ما يقال له « الرمز » وأصله فى اللغة الصوت الخفى الذى لا يكاد يفهم ، ثم أطلق على ما خفى من الكلام وأريد طيه عن سائر الناس مع الإفضاء به إلى بعضهم . قال قدامة فى نقد النثر : « وقد أتى فى كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز شىء كثير ، وكان أشدهم استعمالاً للرمز أفلاطون

يضاف إلى هذه الأغراض الدنيوية جميعاً غرض آخر متعلق بالدين ، هو ما يكون من تجنب الكذب الصراح أو اليمين الكاذبة ، مع سلوك سبيل المداراة والإرضاء بالظاهر من القول . وقد جاء فى الحديث : رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل مداراة الناس . وإنما يكون ذلك عند التقية ومخاطبة من تخشى بادرته من حاكم غاشم أو سفيه منهجم . ويسمى ابن دريد ذلك (الملاحق) وقد ألف فيه كتاباً فيما سنشير إليه . ويسميه قدامة « المعارضة » وتعريفها عنده أنها المقابلة بين الكلامين المتساويين فى اللفظ . قال : وذلك مثل قول بعضهم وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله فى لبس السواد فقال : وهل النور إلا فى السواد ! وأراد نور العين فى سوادها ، فأرضى السائل ولم يكذب

وضرب قدامة مثلاً من المعارضة فى القرآن قول مؤذن يوسف : «أيتها العير إنكم لسارقون» وهم لم يسرقوا الصواع ، وإنما عنى سرقتهم إياه من أبيه

قلت : وشبيه بهذا قوله تعالى على لسان إبراهيم : « بل فعله كبيرهم هذا » يعنى أن الصنم الأكبر كان أشدها إغاظة له لما رأى من زيادة تعظيمهم إياه وأقوها ـ تبعاً لذلك ـ حملا على التحطيم « والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه » ـ فى الآية أسلوب تعريضى جمع بين تبكيتهم ، والتبرؤ من الكذب بإسناد الفعل ظاهراً إلى الصنم

وليس يعد هذا النوع من المعارضة كذباً بوجه ، إذ كان من مأثور قولهم : « فى المعاريض مندوحة عن الكذب » . والصدق فى اللفظ غير مراد لذاته ، بل لدلالة فيه على الحق ، ومعونة منه على بلوغه . وقد أزال الغزالى ما لعله يتبقى من الشبهة

(١) أبو المظفر أسامة بن منقذ . توفى عام ٥٨٤ هـ